المثقف
ليمام محمود عبد القادر
الصوت
الخافت
رواية

الطبعة الأولى 1443 هـ - 2022 م
(ISBN) : 978-9931-13-188- 5
الإيداع القانوني: 2022/01

اسم العمـــــل: الصوت الخافـت
اسم المؤلـــف(ة): ليمام محمود عبد القادر
تصميم الغلاف: زكرياء رقـــاب
رسومات: الفنانة موساوي هبـــة
إخـــــــراج: أحمد منصـــوري
تدقيق لغـــوي: د. سورية قـادري
المدير العـــام / سميرة منصـوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـــوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونـــي: www.elmmothakef.com
هاتـف / فاكس 79 47 80 033 / 19 04 68 0770
واتساب/86 73 49 0675
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.
©

ليمام محمود عبد القادر

رواية

الصوت المخيف

المثقف
للنشر والتوزيع

إهـــــــــــداء

إلى تلك الروح الجميلة التي فارقتنا بداية رمضان والتي زارني طيفها الحنون في المنام لتسأل عن حالي لحظات قبل أذان الفجر.

إلى جدتي تركية شهيدة الكوفيد رحمها الله.

إلى من كانت أما حنونا لكل المستضعفين قبل أن تكون جدة لي.

إلى كل من فارقونا بأرواحهم تاركين في نفوسنا ذلك الأثر الجميل والكثير من الشوق.

رحم الله كل أموات المسلمين

المقدّمـــــــة

قليـل مـن المخلوقـات منـذ الأزل مـن أُكرمـوا بقـدرة الاسـتماع إلـى صـوت القمـر؛ صـوت جريـح مثقـل بالحـزن.

هكذا قد وصفه أولئك المصطفين أصحاب الكرامات.

ولربما كان صاحبنا الطبيب المشرد واحدا من هذه الثلة المرهفة الأحاسيس التـي قـد نالـت هـذه الكرامـة العجيبـة إن صـح اعتبارهـا كرامـة؛ فأصحـاب الحكمـة يسـمونها الابتـلاء الناعـم.

أليـس السـمع المرهـف ابتـلاء عظيمـا يوجـب الشـقاء والكبـد لمـن حـق عليـه التكليـف ؟

فـي هـذه الليلـة شـدت السـماء ثوبهـا وكشـفت عـن سـاقيها فامتـلأ الكـون بـكل أنـواع البـرد والجمـود، وسـرى صـوت خافـت مجهـول النسـب الكونـي مسـتهدفا طبيبـا مشـردا قـد اعتـزل منـذ زمـن قومـه أبنـاء آدم، وفـر بجلـده وذاتـه مـن زخـرف مـا يسـميه البعـض حضـارة البشـر.

ترتعد جوارحه من شدة البرد، وبالرغم من هذا يستمر بالإصغاء إلى ذلك الصوت الخافت البعيد محاولا تبين طبيعته؛ هل هو صوت بكاء رضيع أم مواء قطة مشردة جائعة؟

بعد لحظات ينقطع الصوت وكأن المكان ابتلع ما فيه ليغشى حينها حلكة الليل هدوء رهيب.

ارتابه الشك حينها إن كان قد توهم الصوت الخافت أم أن البرد أثر على أذنيه وزاد من قوتهما وحدة سمعهما، حتى أن البعيد من الصوت قد صار قريبا في متناول مدى سمعه، وكأنه وُجد في هذه الليلة الهادئة الكئيبة ليستمع فقط بشكل مرهف ويستقبل الأصوات التي كانت تتزلج الهواء البارد مسرعة حتى تستقر بطبلة أذنه وكأن لا ملجأ لها إلا عنده.

تتشابك الأسئلة الثقيلة في ذهنه مشتتة بذلك انتباهه إلى قطع صغيرة حادة تجرح جوانب عقله، وكأن في رأسه قبضتا مجنون قد عزم على فرقعة أصابعه، ومن ثم كسرها بشكل أبدي غير قابل للجبر.

وليقطع الآن ارتيابه المتمايل الخطى بما حز في نفسه من فضول قوي حول ماهية الصوت الخافت.

كان عليه حتما أن يقذف بشكل عنيف رجولي الطباع بكل تلك الأسئلة -في رعشة شك-:

هل كانت تلك آخر أنفاسه المرهقة وصيحته الضعيفة مودعا بها الحياة؟

وإن كنت أنا المقصود بالاستغاثة فلم ظللت مختبئا؟

لِمَ لَمْ أبادر بالصراخ وعرض النجدة عساي أمنح أملا لصاحب الصوت الخافت الذي انقطع شبح أثره وغاب عن المكان ليصير من ماضي الزمان؟

الطبيب المشرد

يتحرك شوق جميل في نفسه الضيقة البالية لضعف ورقة ذلك الصوت الخافت، وحينها يلفح أطراف جسده الهزيل لسعات البرد القارس.

يبدوا أنه في حد ذاته أهل للشفقة وذو مسكنة وانكسار.

غريب أمره ...كيف هذا؟

بالأمس القريب كان طبيبا يعالج المرضى ويمنح أمل الحياة لمن لا أمل لهم وأوشكوا على الموت.

كانت نظرته الطيبة في عيني المريض هي الترياق لمن أنهكته مرارة السم المتفشي في بدنه.

كان دوما ينظر إلى أعين المرضى الذين هم بين يديه ويتساءل في نفسه محتارا:

هل كانت الحياة في حد ذاتها هي السم الخفي الذي يرهقنا عاما بعد عام ويدفعنا إلى العجز والشيخوخة؟

هل كانت مصائب الحياة هي من يلدغ البدن؟

وقد تكون أشد اللدغات السامة تلك التي تغتال فينا روح الفرح والسعادة.

سعادة تم اغتيالها كتلك التي كان يعيشها أيام زواجه بسارة، والتي كانت أجمل مراحله العمرية إلى حد أنه كان يبوح لها أن لا رجل على وجه الأرض في زمانهم هذا قد ظفر بامرأة واطمأن معها مثله هو، مفتخرا دوما بنصيبه فيها.

سارة صاحبة العيون البنية الجميلة المحاطة برموش فاتنة وحاجبين هلاليين، وكأن وجهها سماء نيرة مضيئة بهلالين لشهر محرم يقدس فيه الجمال بأسمى معانيه، قد رمته في قلبه أيام دراستهما معا بكلية الطب بنظرة عسلية مميزة في زمن أقل من الثانية لشدة حيائها.

تلك النظرة الممزوجة بعسل أنوثتها المؤدبة، والتي قل من عرفها لندرة من نظرت في أعينهم مباشرة وإن كانوا من أقاربها؛ فقد كانت تتخير مرمى نظراتها ذات البهاء والحسن من الناس الطيبين.

وأما هو فقد شعر حين رمته بتلك النظرة الساحرة بثقل شديد في قدميه وارتخاء في جسده على غير العادة، وكأن روحه بذلك قد استشعرت ثقل ما رمي به عليها وما ينتظره.

فللنصيب الطيب وطء ثقيل على الروح يستهل به الشغف والهيام في أطوار عديدة، وحتما يصعب على المملوك فيه التملص منه أو إخفاء ما يورث من أحوال غريبة.

وقد لمحت سارة في وجهه المضطرب كلما التقيا في أرجاء الكلية شيئا كثيرا من الخجل، ممزوجا بالشوق العفيف المتبادل الجلي لهما حصرا دون غيرهما؛ وكأن بدايتهما معا كانت شيفرة خوارزمية لا يفهم معناها غيرهما أحد من البشر.

ومضت الأيام وها هو ذا يسأل عنها وعن عائلتها الطيبة، ليتبين له أن سارة فرع من أصل طيب، وأنها بذاتها وأخلاقها كياقوتة ثمينة في ثوب طالبة طب.

ولذلك كلما التقاها كن في قلبه مرغما الكثير مما يريد أن يبوح به؛ لأنه لم يمتلك الشجاعة الكافية ليحدثها أو يلقي التحية عليها حتى.

فحياؤها ألبسها حلة وقار وهيبة أنثوية مميزة حالت بينها وبينه لأشهر طويلة، لتظل تلك الكلمات الغرامية الجميلة حبيسة قلبه المتيم بها إلى أن أتى ذلك اليوم البهيج.

دخلت سارة صدفة إلى الصيدلية التي كان يعمل بها مساء، لتتفاجأ به وهو يمسك بالوصفة الطبية وقد التقت عيونهما كالتقاء ظبيين صغيرين بريئين متعطشين لحليب أمهما التي قد تاهت عنهما، ولتهب آنذاك عاصفة رعدية في قلب كليهما لفرط دهشتهما باللقاء غير المتوقع.

لكن سرعان ما أذهبت سارة ذلك الذهول بفطنتها؛ فقد أشارت بيدها إلى الدواء المفقود في سوق الأدوية بالوصفة لتخفف بذلك من وطئ المفاجأة على كليهما.

نظر إلى اسم الدواء في الوصفة مطولا...

فقد كان يبتغي حينها حيلة لتعود سارة في المرة المقبلة إلى الصيدلية وبحوزته هذا الدواء المفقود، عله ينال بذلك رضاها عنه.

ما أشبه الحب العفيف بالعبادة الخالصة في جوهره!

فالمحب العفيف والمتعبد المخلص كلاهما يبتغي قرب المحبوب ورضاه -مع حفظ الفارق-.

قاطعت سارة تحديقه المطول إلى الوصفة قائلة:

لا ضير إن لم يكن الدواء بحوزتكم، فأنا أجوب صيدليات المدينة منذ أسبوعين دون جدوى.

أخذت سارة الوصفة من يده وانصرفت بسرعة.

أما هو فقد وقف مذهولا ولم ينطق بحرف واحد، وكأن الزمن قد توقف حينما سمع صوتها لأول مرة.

في الحقيقة أن جسده لوحده هو من بقي بالصيدلية في تلك اللحظة، أما روحه فقد سافرت بصوتها إلى زمن كان فيه برفقة أمه نادية الأرملة الفقيرة المتعففة.

فهو يتذكرها أما حنونة لا تفارق الابتسامة محياها.

أمه التي كانت تعود إلى بيتهم كل مساء وفي يدها تلك الدنانير التي تجنيها من بيع الخبز، وقد نالها من التعب والإرهاق الشيء الكثير، ولكنها لم تتأفف يوما مما تعانيه من سعالٍ بسبب حساسيتها من الغبار الذي تتعرض له جراء جلوسها مطولا على رصيف الطريق وهي تلوح بالخبز للمارة.

كل هذا وأشعة الشمس تحرق جلدها الناعم والعرق يصب من جبينها صبا، محافظة بذلك على شرفها.

كما أن كل من عرف طفولته يدرك أن أمه نادية قد قاست وعانت الكثير في سبيل تربيته.

لم تصر سارة الآن امرأة أُعجب بها وحسب؛ بل صارت عنده ذات مقدسة محبوبة تربطه بكل ذكريات طفولته التي تَنعَّم فيها بحنان أمه وعطفها، فقد كان ابنها الوحيد المحبوب.

أجل... صوت سارة يذكره بصوت أمه التي فارقته، تاركة إياه طفلا يتيم الأبوين لم يبلغ من العمر عشر سنوات بعد.

كلاهما يتسم بشجن جميل في الصوت، وكأن منبعه حنجرة ناسك مبتهل عذب النغم قد تزين عندهما بعاطفة الأنوثة.

ذلك الصوت الناعم عميق الوجدان الذي نام على أنغامه وهي تنشد له أناشيد الأطفال المحلية، في تلك الليالي التي كان يشعر فيها أنه ملك، وأن أمه منحته مُلكا عظيما شاسعا، رغم أن بيتهم آنذاك كان كوخا في الريف وبالكاد يمتلكون قوت يومهم.

وبمجرد أن همت سارة بإغلاق باب الصيدلية مستديرة بوجهها إليه وقد بدا عليها اليأس من إيجاد هذا الدواء خاطبها قائلا:

أعدك بأنني سأحرص شخصيا على تدبر أمر الدواء، لا تقلقي.

قد تبدوا هذه الكلمات البسيطة فارغة من المشاعر، لكن سارة لمحت فيها الكثير من الاهتمام المبطن بشوق اللقاء القريب، وأدركت أنه يسعى بجد إلى مشاطرتها مسؤولية إيجاد حل لمشكلتها وكأنها تخصه هو.

وتيقنت من ظنها السابق فيه بأنه شاب عطوف يهتم لمآسي الآخرين، فقد اشتهر بين زملاء دفعته في الكلية بهذه الصفة، وربما كانت هذه الميزة هي أهم ما جذب اهتمام سارة إليه.

وما هو إلا أسبوع وقد تجدد لقاءه بها في بهو الكلية وفي يده ما وعدها به، وقد دار بينهما حديث لطيف عفيف كان فيه الكثير من التلميح من سارة بأنها معجبة به أشد الإعجاب.

ليستجمع شجاعته بعد أشهر معدودة ويذهب رفقة عمته وخاله إلى بيت سارة طالبا يدها من ذويها، وقد رحبوا به أيما ترحيب لمعرفتهم الطيبة السابقة به، وقد اتفقوا على كل الشروط والتي كان من أهمها أن سارة ستعمل كطبيبة باحثة في مخبر الأورام السرطانية، وقد سره هذا كثيرا لأن هذا شرف علمي كبير.

وفعلا بعد زفافهما كان من عادته دوما عند رجوعه من مصلحة الاستعجالات نهارا يمضيان الكثير من وقت فترة القيلولة في نقاشات علمية حول أبحاثها، متصنعا بذلك دور الخبير المتطلع بدقائق المستجدات والاكتشافات.

أما هي فقد كانت تحب منه ذلك، وتناديه بحضرة البروفيسور كلما تعمقا واسترسلا في الحديث، ليطنب بذلك في سرد آرائه الطبية والتي كانت تراها سارة كقصيدة غزلية بلغة علمية حينما تخرج من شفتيه.

في حقيقة الأمر أن كل إنسان منا يفتقر إلى تلك الروح المميزة عن الغير، والتي تحمل عنه همومه في نهاية اليوم.

وقد وجدت سارة هذه الروح المنشودة في زوجها، وكأنه قد وُجد في هذا الكون ليكون لها ملجأ آمن تسكن إليه بذاتها وتفر إليه من ضوضاء الحياة وصخبها، لتعيشها كما يحلو لها برفقته.

ولكم كانت فرحتهما بالجنين الذي حملته بعد طول انتظار، وراحا يتخيران لها أجمل الأسماء الأنثوية؛ فهكذا أخبرهم عن جنسها كشف الأشعة.

كانت سارة تلح أن تسميها ملاك، وأما هو فلم يكن ليعاكس رغبتها، وكان دوما يمازحها قائلا:

أخشى ألا تشبهك ابنتنا.

وبذلك يفتح معها جدالات في علم الوراثة، وكيف أنه يمكن لصفاتها أن تضمحل وتظهر في ابنتهما صفات قديمة من الأجداد، أو صفات جديدة غير المألوف فيها، ولأجل ذلك الحديث كانت تتقمص دور المرأة الغاضبة من زوجها تصنعا لا حقيقة، وتخبره بأنها لن تعد العشاء لأنها قد ضجرت من الطبخ والمطبخ.

كان يجاريها في لعبتها ويبهرها دوما بمهاراته في إعداد الأطباق العصرية لعلمه بما تشتهيه هي من ذلك.

لكن قد قيل في نونية أبي البقاء الرّندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصـــان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتهـا دول من سره زمن ساءته أزمـان

بحلول صباح يوم السبت أيقظته سارة وهي تشكو آلاما ووجعا قويا في بطنها تظنه بسبب المخاض المبكر؛ فقد كان يفترض بها أن تلد بعد ثلاثة أسابيع لا في ذلك اليوم.

ليتوجها على عجل إلى المستشفى، وليقرر الأطباء بعد العديد من الفحوصات الطبية إجراء عملية قيصرية لها.

لكن علامات القلق كانت بادية على وجه سارة، ليس خوفا من العملية الجراحية وشق بطنها بالآلات الحادة، وإنما لحدس قوي في ذاتها يخبرها بأن نزهتها في الحياة الدنيوية قد حان أجل انقضاءها.

أمسكت بيده ونظرت إليه بعنينيها البنيتين المنهكتين من شدة ما تجد من أوجاع في بدنها، وراحت بذلك برهة من الوقت متأملة إياه.

كانت تبحث في تفاصيل وجهه كمن يبحث عن بئر في صحراء قاحلة من شدة العطش.

خاطبته حينها على غير ما عهده فيها من قوة وصبر وطول تحمل بصوت خافت قبل دخولها إلى غرفة العمليات:

إن كل محب مفارق وأخشى أن يكون اليوم موعد فراقنا.

ارتابه الذعر حينها فهو لم ينتظر أبدا قدوم يوم ستفارقه فيه سارة، كما أن هذا الصوت الخافت يذكره بما سمعه من أنين القمر سابقا في أيام حزنه.

الذين اشتد بهم البلاء الدنيوي ووُهبوا كرامة الاستماع إلى صوت القمر يعلمون أن القمر في كل شهر له ليلة يئن فيها مشتكيا من فقد الأحبة.

أنينه بصوت خافت يسحب كل لحظات الوداع الكونية، ويبثها إلى مسامع أصحاب الكرامة الذين يسمعون خطابه الحزين، ويتذوقون معه ملوحة مياه الحزن، ويسبحون في ذلك الوجدان بين تقلباته في الأنين بصوت خافت.

فالمعلوم والمتفق بينهم كلهم أنه حتى القمر كانت له عشيقة في هذا الكون قد فارقته منذ زمن بعيد، وأنه لم يتنعم قط بالطمأنينة منذ ذلك الحدث الكوني المشهود.

ولكم كرر القمر على مسامع أصحاب الكرامة الكثير من أشعار البشر العديدة باختلاف أصنافها ومواطن مؤلفيها وأزمنتهم فداء لمحبوبته، منها ما كتبه الشاعر الجزائري سليمان جوادي وسمعه الطبيب المشرد في كلام القمر:

ما قيمة الدنيا وما مقدارهـــا إن غبت عني وافتقدت هواكا

ما قيمة الأزهار حين ألمهـــا ما قيمة الأشياء دون لقاكـا

أدمنت حبك هل ترى يا ظالمي أدمنت تعذيبي فطال جفاكـا

كل القصائد لم تعد مثل التـــي كانت تهدهدني بها شفتاكـــا
تلك الحدائق كالحرائق أصبحت وغدت جميع ورودها أشواكا
ما الورد ما الأشعار ما عذب الهوى إن لم تكن قربي هنا لأراكـــا

أرخت سارة يدها وهي بذلك تودعه، فقبل الوداع دوما ارتخاء، ليسهل ما بعده على المتفارقين المتحابين.

كل الذين شهدوا ذلك الموقف أدركوا أن ما يربط بين هذين الزوجين ليس زواجا ظاهريا فارغ المضمون كما نشهده في أيامنا هذه؛ ما كان بينهما من ود ورحمة وائتلاف بعيد كل البعد عما نشهده من تناقضات وجرائم بشرية باسم عقد الزوجية في عصر تراقص القردة هذا.

وإنما هو رباط مقدس بميثاق غليظ؛ وكأنه حبل متين شديد خُصص للمخلوقات كي يجمع الذوات الروحية الراغبة بالتناسل ويصهرها بغير نار أو لظى، ويوحدها بذلك أشد توحيد. جاعلا للزواج معنى لا يقبل الفصل أو التجزئة في مفهومه تماما كذلك الذي يكون بين جناحي العصفور؛ فمتى فصلت عنه إحدى جناحيه فصلت بذلك روحه عن جسده، ويتلاشى بسرعة عن ظاهر الوجود المادي.

لأجل هذا قد وضع يده بلطف على جبينها المتصبب عرقا قائلا:

سنفرح بمولودنا ... قبل أن يكمل كلامه دفعت الممرضة السرير المتحرك نحو غرفة العمليات القيصرية.

لم تكن تلك الممرضة تدرك أنها قطعت بفعلها هذا آخر لقاء جمع بين الطبيب وزوجته سارة التي توفيت بعد ساعة من الزمن، جراء نزيف حاد أصابها أثناء العملية بعد إخراج الجنين من بطنها، بالرغم من أن الأطباء حاولوا بكل الطرق إيقاف النزيف لكن دون جدوى، فللقدر ميعاد لا يُخلف.

لم يجرؤ أحد ممن كان في غرفة العمليات أن ينقل إليه خبر وفاة زوجته سوى صديقه الدكتور أمجد، والذي تقدم إليه بخطى متثاقلة وعيناه مملوءتان دمعا قائلا:

قد تركت لك سارة ملاكا صغيرا هنا وذهبت إلى الجنة.

كان هذا اليوم الفاجع مفصليا في حياته، بل إن الحزن سيصير ظلا ملازما له ولو كان في أشد حالات عتمته الوجودية.

كيف لا وقد ذهبت عنه بلا رجعة زوجته سارة التي تذوق معها شغفا وهياما وعبقا من حنان أمه القديم.

غريب كيف أن الأيام دُول بين الناس؛ فبالأمس كان طبيبا محترما في مجتمعه، واليوم صار طبيبا مشردا لا يكاد يذكره أحد من البشر.

وها هو ذا يستدفئ وحيدا منعزلا في ليلته هذه بشيء قليل من العيدان والأغصان التي بالكاد لم يمسسها البلل، فالبخار المنبعث منها عند الاحتراق أكثر بكثير مما قد يناله من دفء لهيبها.

تلك الكومة الكبيرة من الأغصان المبتلة التي هي بجانبه لم يكن لها نفع أيضا، فحتما لن تطهو له شيئا من هذه الغزالة الهيفاء الجبلية التي قد اصطادها بشبكته هذا الصباح.

هو مندهش لأنه لم يصطد شيئا كبيرا مثلها منذ أسابيع عديدة، فكل ما كانت تجود به شباكه المفخخة المنصوبة في محيطه من الأشجار كان بضع سناجب وأنواعا مختلفة من الطيور، يأخذ منها بقدر حاجته كي يذبحها ويتلذذ بلحومها إن كان جائعا، أو يعفو عنها ويطلق سراحها إن لم تكن له رغبة في طهيها، فقد اعتاد البقاء صابرا على الجوع منذ أن ولج هذه الغابة.

فقد جزم من خلال تجاربه السابقة أن رائحة الشواء وبقايا طعامه دوما ما تجلب له الهوام الجائعة والمفترسات المتوحشة بسرعة ما يكلفه عناء إخماد النار بقوة حتى تفر منه.

وكان عليه بحلول الصباح أن يحفر عميقا ليدفن مخلفات ليلته، كي يزيل تلك الروائح المُشْعِلة لغريزة الافتراس لدى الهوام.

إلا أن شهيته القوية للحم الغزال أزالت عنه أفكار الكسل والخمول؛ فبإمكانه أن يؤجج النار ويرمي إليها بالأغصان، لأن غزالا مشويا حتما يستحق هذا العناء.

أخرج الآن مروته وهي قطعة صخرية حادة وقف على شحذها بنفسه، وأتقن ذلك غاية الإتقان كي يحسن ذبحته، ولا يعذب ما بين يديه، إذ اعتاد أن يذبح بها صيده سابقا.

أخذ يتلمس عنق الغزالة كي يحدد بدقة موضع الحلقوم، لكنه وجد أن هذه الغزالة تتنفس ببطء شديد، ووجد بأنها في غاية الإعياء.

نظر بجهد كبير في عينيها بالرغم من حلكة المكان، فوجد فيهما من الضعف والأسى ما ذكَّره بذلك اليوم الذي سقط فيه قلبه بين رجليه، ثم غاص بعيدا عنه في أعماق الأرض تأثرا بما استمع.

أجل ... يوم استمع إلى القمر وهو يقص لمخلوقات الكون ما جرى له.

سكت الطبيب المشرد حينا من الزمن ثم خاطب الغزالة وهو ينظر إلى عينيها المتعبتين اللتين كانتا تنظر بهما إليه، وكأنها بذلك تفهم كلامه قائلا:

أتدركين ما الذي جعل القمر يعتزل بقية الكواكب ويلازم الأرض ويطمئن إلى ما عليها من مخلوقات ويواسيهم إن هم أنفسهم قد ضاق بهم رحاب الكون؟

استمرت الغزالة بالتحديق إلى عينيه كما تفعل كل البهائم حين يخاطبها البشر، ثم قال:

عجبا...

ألا تعلمين أن قهر ما تجرعه من الخذلان بسبب باقي الكواكب الحسودة سبب ذلك!

دوما ما أتذكر كيف أن القمر يئن شوقا إلى أزمنة مضت، وأنينه يوحي بأنه قد حضره الموت.

ولكن روحه المتعبة تأبى أن تفارقه بالرغم من كل تلك الكدمات التي تعلو وجهه

تلك الكدمات والحفر التي شوهت وجهه لها قصة قديمة تفطر قلب كل من يعرفها بحسب ما يحكي القمر للمتعبين نفسيا (منا) عن ذلك اليوم المشهود.

يوم استلت باقي الكواكب سيوفها وطعنته في وقت واحد، وقد ملأ الكون صراخا وكاد أن ينفجر غيظا من شدة الخذلان، ليغرق بعدها في دمه الضوئي وينزف لقرون غبارا كونيا براقا متناثرا في أرجاء السماء، كشاهد دائم لما حصل.

كانت سيوف الكواكب عبارة عن مُذَنبات متفاوتة الأحجام تحرق كل ما تلمسه، لهذا بعض تلك الكدمات التي تعلو وجه القمر تبدو كحفر لنيران مقيتة.

من يومها انقطع القمر عن التغريد ولم يعد يسمى بلبل الكواكب الجميل، فكل ما كان يقوم به بعدها هو الأنين أحيانا.

وفي بعض أوقاته يصل به الشتات أن ينطوي على نفسه وينتظر موعد الخسوف حتى يختبئ وراء الشمس.

ما قصه الطبيب المشرد على الغزالة من أحداث سمعها عن القمر كان أمرا اشترك فيه ثلاثتهم كلهم بالرغم من اختلاف صنف ذواتهم.

فبمجرد أن نظر في عيني تلك الغزالة وهما تفيضان حزنا وخوفا أدرك أنها أهل للاستماع إلى قصة القمر.

أوليس في القصة مواساة واستئناس للمتعبين من طول الابتلاء؟!

ألقى ما بيده وفك وثاق الغزالة، فانطلقت راكضة بعيدا عنه، فأخذ يتتبع خيالها وهي تبتعد عنه مختفية بين الأشجار.

الحقيقة هي أنه قد رأى انعكاس نفسه البائسة في عيني تلك الغزالة المتعبة، والتي أدرك أن سبب إعيائها كان ما قاسته سابقا، إضافة إلى ما تحمله في بطنها، وأنها كانت تخشى على صغيرها الذي تحمله أكثر مما تخشى على نفسها.

حتما أن هذا الطبيب المشرد لا يمتلك عاطفة الأمومة التي تمكنه من الإحساس العميق بما جال في داخل الغزالة من مخاوف ورعب على ما في بطنها كأم، قبل أن يكون على ذاتها كمخلوقة بروح تعشق كل ألوان الحياة، إلا أنه قد امتلك ما يفوق عاطفة الأمومة، ذلك أنه جرب ابتلاء الأبوة.

أولم يبتلى سيدنا إبراهيم الخليل في عاطفة الأبوة حينما أُمر في الرؤيا بذبح ابنه ثم وُصف ذلك الابتلاء بأنه البلاء المبين؟

أيضا قد أُبتلي الطبيب المشرد في ابنته ملاك، والتي كلما تذكرها ينزف قلبه حسرة على فراقها الغريب، فهو لا يصدق أنها فارقته فجأة دون وداع يخفف من صدمة الفراق، كما يفعل كل البشر بأجسادهم الباردة حين يسمحون للأحياء بملامستهم وتقبيل جبينهم متوجسين من تلك الحقيقة التي تفضي بأنه حتما بعد كل لحظاتنا الدافئة المبهجة تأتي فترة الشتاء الطويل، حين نشعر فيها بعواصف الجليد العاطفي.

لا يحس الآن بأصابع قدمه من شدة البرد، فتلك النار التي أوقدها في بداية الليل لم يبق منها إلا رمادها وشيء من الدخان المتطاير.

يبدو أيضا أن الدم قد تجمد في أطراف بدنه كلها، وأن اللون الأزرق سيصير لونه المحتوم الذي قطعا لم يختره بنفسه في هذه الليلة، وإنما هو سلطان الشتاء من يفرض هذا على كل المشردين.

فالشتاء سلطان كوني جائر يقيم احتفالا كئيبا لنفسه، يضحي فيه بكل هؤلاء المستضعفين المصبوغين بالأزرق كقربان جاهلي لا يسفك فيه الدم وإنما يُقدم جامدا.

وها هو ذا الطبيب المشرد يكاد يصير قطعة من جليد المكان ليتجمد كما تجمد ضمير قلبه،

ويتساءل محتارا في ذاته:

ما فائدة هذا القلب الخاوي من حب الخير للغير، والذي لم يلبي نجدة صاحب الصوت الخافت؟

ولكن، أليس الأولى أن يشفق على حاله ويساعد نفسه وهو الذي يوشك على التجمد، وكأن ليس من حقه أن ينعم بمكان جاف دافئ يقيه قسوة تلك الليلة الباردة؟

ما بال ضميره الثمل هذا لا يؤنبه؟

وهو الذي كان ذات يوم طبيبا يساعد المحتاجين، ويفتح قلبه لكل من ضاقت بهم الحياة، تماما مثل ما حدث قبل عشر سنوات حينما همَّ مدير المستشفى بطرد طفل إفريقي لاجئ اسمه ساموبل من غرفة الاستعجالات؛ لأنه لا أوراق ثبوتية له، ولأنه غير مؤمن صحيا.

كان الطفل ساموبل يستجدي باكيا وقد طغى عليه ضعف الطفولة وقهر كونه لاجئا منبوذا لا سند يحميه؛ حتى أبويه اللذين كان يفترض عليهما حمياته ورعايته قد أحرقتهما نار الحرب. هذه

الحرب التي كان من دخانها ولهيبها المحرق أن تترك ساموبل بقيحه وعفن جروحه والتي لم يعد بمقدوره أن يتحمل آلامها.

لكن مدير المستشفى حينها أراد أن يستغل هذا الموقف ليرسم في ذهن الجميع لوحة مشوهة -لا لوحة فنية-تعبر عن قسوته وصرامته المتعجرفة في تطبيق القانون، ومن شدة قبحه اتخذ من دموع وجروح الطفل ساموبل علبة طلاء ليرسم هذه اللوحة البشعة.

صاح المدير في وجه الطفل قائلا:

أنتم الأفارقة ترشقون بعضكم بكل أنواع السب والتخوين وتسعون بكل ما أوتيتم من قوة أن تسقطوا الطبقة الحاكمة واصفين إياهم بالحمقى...

أنتم سبب الفقر القبيح والتخلف الهمجي وكل خراب مس البشرية في عصرنا هذا.

استجمع الطفل ساموبل قواه ولملم شتات ما في صدره من زجاج شجاعته الطفولية قائلا:

ما ذنب المستضعفين منا إن كانت الذئاب أصحاب البدلات الرسمية تعشق الاستدفاء ببراكين الحروب السوداء.

تسموننا سخرية بأبناء القارة السمراء بالرغم من أن أرضنا تنبض بكل ألوان الحياة؛ ففي غاباتنا كل أنواع الفواكه التي تحرسها الفراشات المرشقة بالألوان، وغير بعيد عنها كل تلك الأنهار والوديان بأشكالها الفسيفسائية المتضمنة لحجارة ذهبية براقة وحصى ألماسي يراودكم عن أنفسكم إن هو أراد ذلك، ليقابل دوما بالخضوع والانكسار منكم.

وليكن في علمك أننا نسمي أمثالك المتغطرسين بعبيد الشهوات النرجسية، أجبني:

ألم تستعبد قلوبكم أرض القارة السمراء؟

ألا ترى أن أمثالك أصحاب البدلات الأوروبية العاشقين لموضة الكوستيم كل ما يجمعكم هو إدمانكم على لف كل جمال العالم في ورقة كئيبة مملوءة بالأكاذيب، لتصير رمادا عديم اللون تستنشقون دخانه الكريه على أطلال ما خلفتم من حروب ومجاعات تستمر لعقود وعقود من الزمن؟

انتشرت همهمات وضحكات سريعة ساخرة من مدير المستشفى، ففي إجابة الطفل ساموبل رد صارم قوي على ما يقوم به المدير من أساليب تحطيمية لجهود العاملين بذلك المستشفى.

وفجأة قُطعت تلك الضحكات بصوت اللطمة الملتصقة بخد الطفل ساموبل ليسقط مباشرة بعدها، ويتبعثر معها ما تبقى من كرامته على تلك البقعة التي أبت أن ترد صدى ارتطام رأسه بها، والتي احتضنته بأرضيتها الصلبة الباردة.

أجل ...

فقد احتضنته تلك البقعة التي تفتخر بوجود مدير المستشفى فوقها احتضانا ترابيا صلبا قاسيا متصنعا كزوجة أب تمقته لا كأم تحن عليه.

بالرغم من أن أم ساموبل كانت ممن قد غطّاهم التراب إلى الأبد بكل عطف وحنان، إلا أن ذلك التراب القاسي لحظتها قد أَنْكَره أيضا.

أوَلَا نشعر نحن أحيانا أن التراب بكل ما يحمل من أثقال دفينة يخاطبنا بكل كراهية ويقول لنا: ارحلوا عني فأنتم لستم من هنا، ويدفعنا إلى الهجرة عنه مكرهين مضطهدين.

رفع المدير الحاقد المغتاظ الطفل ساموبل من الأرض، وأحكم قبضة يده في لكمة قوية موجهة إلى فم الطفل ساموبل مريدا بذلك إسقاط أسنانه وسحق شفتيه اللتين ساعدتا لسانه سابقا في التفوه بذلك الجواب الذي خدش كبرياء المدير وأدناه.

بينما كان كل من في المستشفى يشاهد باشمئزاز هذا المنظر الذي سيظل جريمة إنسانية موثقة باسم قانون الإنسان، تدخل طبيب شاب تعلوه ملامحه الشجاعة والشهامة ليفتك الطفل ساموبل من يد مدير المستشفى ويحمله ضاما إياه إلى صدره قائلا له:

كف عن البكاء يا ولدي سنعالجك الآن وإن كلفنا هذا حياتنا.

أدرك المدير المتعجرف حينها أن الطبيب الشاب يتحداه بفعله وقوله هذا، ليصرخ في وجه الطبيب الشاب قائلا:

ويلك يا هذا أنسيت من أنا؟

وراح يشخص بعينيه في الطبيب ووجهه يشتد احمرارا وكأنه بركان ساخط يوشك أن يلفظ حممه، بينما قبضتا يده راحتا تنكمشان مبينا بذلك أنه يستعد لعراك فعلي.

لكن الطبيب تجاهله بكل برودة وكأنه اتخذ من صمته معزوفة موسيقية جميلة، يبين بها للمدير المتعجرف أن لغة التهديد في هذا الموقف هي لغة بكماء لن تغير من عزيمته في مساعدة الطفل ساموبل شيئا.

وما إن استدار الطبيب الشاب موجها ظهره للمدير وقد مشى بخطوات متسارعة صوب غرفة العمليات حتى تبعه كل الأطباء

متضامنين بذلك مع الطفل ساموبل وموقف الطبيب الشجاع الشهم.

أما مدير المستشفى فقد تُرك لوحده واقفا مذهولا كصنم مهجور لا يضر ولا ينفع، ولم يكن يجرؤ على تحدِّيهم في عصبتهم النبيلة هذه.

ليدرك حينها أن أي موقف عدائي متهور قد يقوم به ضد الطبيب الشاب الذي صار رمزا للشجاعة في نظر زملائه وحاز ثقتهم وتعاطفهم سيكلفه منصبه الإداري كنتيجة حتمية لا مفر منها.

وبعد أن تم تخدير الطفل ساموبل، تولى الطبيب الشاب إجراء العملية بنفسه؛ وقد تم تطهير الجروح وخياطة ما تمزق من أنسجة ببراعة منقطعة النظير، ليزداد بذلك احترام الطاقم الطبي لمهارته العلاجية وذاته الطيبة الصافية النقية.

وما هو إلا أسبوع وقد تعافى الطفل ساموبل وشفي من جروحه، والفضل كله لله الذي منح لذلك الطبيب الشاب قلبا طيبا وشجاعة قل نظيرها.

لكن من غرائب القدر ومفارقات الزمان وتقلبات أحوال البشر أن ذلك الطبيب الشجاع طيب القلب هو نفسه الطبيب المشرد الآن.

غريب أمره كيف يكون ذا قلب طيب وضمير متجمد في آن واحد!

بل ما أغرب المفترقات حين تجتمع في قلب رجل!

كل تلك المخلوقات الكونية التي نبصرها وتلك التي لم نُمنح القدرة على إبصارها قد جزمت من خلال مراقبتهم إياه وتربصهم لما سيحصل معه أنه يصارع وحيدا منهك القوى، كل تلك تناقضات داخلية المنشأ.

كان حينها كثور هائج متعب بلعاب ذي زبد أبيض متقاطر، تعلو فمه فقاعات هوائية فارغة، واقفا ضد تغول جمود الضمير المشهور بغروره النرجسي الذي استولى على ما تبقى من شتات قلبه وتملكه منذ أن انفطر قلبه وانفجر غيظا لأشلاء متناثرة.

هذا الذي نسميه الآن جورا وتكبرا.

في حين كان الطبيب المشرد ذات يوم طبيبا يساعد المحتاجين، ويفتح قلبه لكل من ضاقت بهم الحياة.

ها هو اليوم ينزف وحيدا معذبا بقسوة الإهمال، في أمس الحاجة إلى أن يرأف ويعطف ويحن على نفسه قبل غيره.

هل كان صاحب الصوت الخافت المبهم المصدر أيضا مبتلى بموت الضمير في حق الأنا المعابة عندهما بفقدان حب الخير للنفس بشكل مفرط؟

تماما كحال الطبيب المشرد لأنه رضي بتواجده في ليلة باردة بمكان يغطيه الجليد، وأن لا ضمير له حتى نحاسبه، فاللوم كل اللوم يقع على من لم يهب لنجدته هو أيضا.

أم أن الأمر أكبر من وجود ضمير من عدمه؟ وإنما هي أقدار مسطرة وسنن كونية لا دخل لضمير البشر فيها.

الصوت الخافت في المنام

قرأ المعوذات على يده ومسح بها سائر جسده كي يتحصن بها من شر يتقيه، ثم اتكأ برأسه على كومة القش الصغيرة التي اتخذها منذ زمن وسادة للترف البسيط يتنعم بها، بالرغم من أن رأسه قد اعتاد سابقا توسد الحجارة الصلبة، وسحب بعدها كل همومه ووساوسه وألقى بها خارج جسده في زفير دافئ ليغط بعدها في نوم عميق.

ثقل جسده إلى الأرض وخفت روحه متمددة متطاولة إلى أطراف السماء حيرة روحانية قد أحاطت به.

أثقلته روحه قاذفة به إلى الأرض كمن يهوي في مكان سحيق، لكن قد اعتاد هذا الشعور فهو ينبئه بأن الأرض تريد حبسه حينا من الزمن بقربها لحاجة في نفسها تهم ساكنيها.

راح يتأمل بحيرة تسارع أنفاس الزمن القلق المضطرب...

وفجأة إذ به يستشعر مفزوعا خطوات زلزال سماوي مهرول نحو الأرض تتسابق فيه أنوار الأطياف متلاطمة فيما بينها بعنف.

كل من يستمع لحظتها من أهل الموت الأصغر إلى ما يبطن ذلك الزلزال يدرك أن بداخله حشدا مشهودا من الأمواج الروحانية السماوية المشتاقة بعنف لأهل الأرض.

وما هي إلا لحظات وتوقف الزلزال، وزال عنه ثقل روحه التي ارتقت بدورها إلى مكان جد عال في السماء بعيد عن الأرض، سائحا بين الكواكب والأطياف التي كانت تتحرك كالبرق لشدة اشتياقها لبعضها.

وبينما هو في حال الدراويش السائحين إذ بطيف يتلقفه و يحتضنه .

أجل ... إنه طيف زوجته سارة!

ينظر إلى سارة في ثوبها المزخرف بألوان لا يعرفها أهل الحياة الدنيا، لكنه يلمح طيفا أنثويا يحدق إليهما من بعيد يسألها عنها، فابتسمت وقالت:

ألن تسألني عن حالي؟

فأنشد لها أبياتا قائلا:

يا روحا عزيزة مترفة حالها قد استعبدت حالي

حتى وإن صرت طيفا بعيدا فذكرك يشغل بالي

عظيم شوقي إليك أرجو قربك دوما وطول الوصال.

حينما سمعت كلماته تأثرت بها وحنت إلى تلك الأيام التي جمعتهما في حياتها الدنيا، وضمته إليها ضما شديدا وقد اشتد

نورهما، ثم نظرت في عينيه وسألته عن ملاك قائلة:

ألم تجدها بعد؟

نظر بعينيه إلى الأسفل غائصا ببصره في ذلك الفراغ الكوني، ثم قال:

أخبروني بأنها ماتت ولكني لم أصدق هراءهم هذا أبدا.

نظرت إليه بعطف ثم قالت:

لا تيأس من البحث عنها.

فلو كانت ميتة لالتقيتها في عالم الأرواح؛ فهنالك الكل يعرف الكل ...

أيها الطبيب الحزين لا أحب أن أراك منهزما هكذا، هيا ابتهج.

ثم إنك قد سألتني منذ قليل حول تلك المرأة المختبئة هناك.

رفع رأسه إليها وقال لها في فضول:

ليس من عادتك أن تجلبي معك الضيوف، أجيبيني من هي؟

التقيتها اليوم وكلفتني أن أنقل إليك هذه الرسالة.

إن المحب إن مات في سبيل الحب فهو شهيد.

وقد قالت لي أيضا بأن هذه المقولة قد لفظتها قبل أن تُقتل من قبل قومها ومن ثم تناقلها البشر خصوصا أهل الحب والغرام.

نظر إلى سارة مبتسما وقال لها:

أتدركين أنك قد جئت الليلة برفقة زوجة القمر؟

زوجته!

أتذكر أنك قد قصصت لي من قبل عنها.

وعن القمر المسكين وكيف أن الكواكب قد هاجمته قديما.

لكن أخبرني:

ما الذي دفع بقية الكواكب لهذا الفعل الشنيع خاصة وأنه أخوهم الأصغر؟

فأجاب:

حاولوا مرارا أن يقنعوه بأن عشقه لجارية من البشر هو خروج عن العرف الكوني.

فلا ينبغي للكوكب أن يتزوج إلا كوكبا مثله.

وبعد عناده الطويل ورؤيتهم أنه يتنعم بملذات العشق البشري اعتبروا ذلك شذوذا وفسقا فحاربوه.

قالت زوجته في استغراب:

ألم تقل سابقا أنه اشتهر بالزهد والتصوف الكوني؟

فأجاب:

نعم، لكنهم لم يتذوقوا ما تذوق من حب البشر لهذا لم يفهموه أبدا.

قالت سارة متنهدة بعد أن وضعت يدها على خصرها وارتسمت على وجهها ابتسامة جميلة: وما الذي يمنع زوجي من العودة إلى البشر؟

يا سارة ألا ترين أنني أشبه القمر؟

هو خانه أصدقاؤه وإخوانه الكواكب، وأنا أيضا خانني البشر أبناء جلدتي.

هيا تشجع أريدك أن تواصل البحث عن ابنتنا ملاك.

ألم تفكر في طريقة أخرى للبحث عنها غير اعتزالك في الغابة وحيدا؟

ولماذا جاءت زوجة القمر توصل إليك رسالتها هذه؟

إن المحب إذا مات في سبيل الحب فهو شهيد.

أراد الطبيب المشرد أن يتكلم ويجيبها فلم يستطع الكلام.

حاول ذلك مطولا لكن دون جدوى!

اعتقدت زوجته سارة أنه غضب من سؤالها، وأنه لا يرغب بالحديث فحلقت بروحها بعيدا، وعلامات الحزن تعلو وجهها النير،

فلم يكن من عادتها في حياتها أن تخاصمه فأنى لها ذلك بعد أن فارقته وصارت من عالم الأرواح لا الأشباح.

وبعدها ثقلت روحه من جديد وهوت إلى الأرض وهو لا يزال عاجزا عن الكلام.

يسري البرد القارس في جسده مجرى الدم، ليتسرب إلى حلمه المرعب أيضا، فها هو ذا يرى نفسه في حلمه يستغيث من البرد والجوع.

يهم بالصراخ لكن حباله الصوتية المتجمدة تصدر صوتا خافتا.

غريب هذا!

ليس صوته الذي لازمه طول حياته بل هو الصوت الخافت.

أجل...

إنه الصوت الخافت الذي سمعه هذه الليلة، والذي أثار فيه زوبعة أحزان وجلب له طيف الأحبة الراحلين قبل أن ينام.

أيطارده حتى في أحلامه البائسة؟

هل وصل به اللوم والعتاب إلى أن يصير الصوت الخافت صوته الذي يصرخ به في وجه الحياة القاسية؟

هذا حدث جميل للطبيب المشرد.

لا شك أن قلبه المتجمد قد دبت فيه الحياة منذ أن سمع الصوت الخافت.

يتساءل في منامه محتارا في أمره الرهيب:

هل كان صاحب الصوت الخافت المسكين على علم بقربي منه؟

هل كان يظن أني سأهب إلى نجدته حينها؟

عجيب أمر المسكين صاحب الصوت الخافت!

هل كان يظن أني أحسن منه حالا وأني قادر على إغاثته؟

يبدوا أن صاحب الصوت الخافت كان كالغريق الذي قد يستنجد بزبد البحر نفسه، ولربما كان في زبد البحر للغريق المستغيث نفع أكبر مما قد يناله مستغيث بي.

في هذا المشهد الغريب يتجمد الزمن كما تجمد المكان من شدة البرد حينها.

حينها تُصارع فلسفة الطبيب القوية اضطراباته العاطفية المتقلبة.

يتأجج الصراع الداخلي فيه بالرغم من أنه يرى نفسه عاجزا في ميدان أحلامه الكئيبة المتجمدة.

يتساءل بغضب وإنكار:

هل يستغيث المسكين بمسكين مثله؟

أو بالأحرى هل يُستغاث بمشرد عاجز في مثل حالي؟

الآن تتدخل عاطفته ويهدأ قلب الطبيب الطيب.

كما أن نفسه المتسائلة الساخطة على عجزه تتقهقر أمام طيبة قلبه لتحد من شدة تساؤله المتكرر حول صاحب الصوت الخافت.

بسبب هذا الصراع الداخلي يذوب الجليد بشكل كلي عن ضميره، وكأن حر الصيف الشديد قد حل على قلبه في لحظة واحدة، ليؤنب نفسه بعنف حينها؛ فلا شك أنه كان الأمل الوحيد لصاحب الصوت الخافت.

يعزم هذه المرة أن يمد يد العون وأن يغيث صاحب الصوت الخافت إن هو سمعه من جديد. فقد ناله من تأنيب الضمير ما ناله.

عجبا!

ففي المنام قد يصير الفقراء المستضعفون ملوكا، فيرون أنفسهم يسارعون إلى إغاثة الملهوف الذي يشابه حالهم في الحياة.

وقد يصير العاجز الجبان في حياته فارسا مغوارا في أحلامه يهب إلى نصرة المظلومين ليسجلها نصرا وفتحا في وجه البؤس والظلم والظالمين.

في المنام تظهر وتتجلى فينا صفات لم تكن يوما فينا.

يترقب الطبيب المشرد بحسرة وشوق شديدين أي ظهور لصاحب الصوت الخافت، فلآن هو قد عزم أشد العزم أن يهب نفسه فداء لنجدة صاحب الصوت الخافت.

لكن، كيف سيبادر إلى النجدة؟

وقد صار صوته خوفا تماما كمن يريد أن يضحي من أجله.

أي ابتلاء هذا؟

هل هي عقوبة إلهية حلت به لأنه لم يكن من المسابقين المسارعين إلى نجدة المستضعفين؟

هل حقا انطفأت نار حربه الوجدانية بين عقله المتزمت قوي المنطق وبين ضميره العاطفي المشفق على كل ضعيف مسكين؟

كَلا.

بل هو الآن يتساءل مع نفسه ليؤجج نار هذا الصراع عساها تنسيه صقيع المكان:

هل يرفع القلم عن المستضعفين إن لم يبادروا إلى نجدة بعضهم بعض؟

بل وهل يحس بالمستضعفين من الناس كصاحب الصوت الخافت إلا من قد تذوق وتجرع ذل الضعف والانكسار؟

بينما يعيش الطبيب المشرد منذ بداية حلمه تنازعات بين عناصره الوجدانية النفيسة بما فيهم عزمه القوي الصادق على مد يد العون إلى صاحب الصوت الخافت ككفارة لعجزه وتخاذله.

فجأة تتولد من روحه البائسة صرخة قوية مدوية كانت كافية لتوقظه من المنام.

ليستفيق مذعورا على صراخه العنيف، ويدرك حينها أن حنجرته سليمة وأن ابتلاءه بصوت خافت كان في المنام لا أكثر.

لكن النار التي كانت بجانبه قد خبت ولم يبق منها إلا الرماد.

ربما كانت الرياح الباردة هي من أطفأها.

امتزج الذعر في صدره مع الفرحة بعودة صوته القوي له.

ومن منا لا يفرح بصفاته القوية المميزة، أليس دوي صوتنا القوي سلاحا نواجه به الوحوش المخيفة عند اللقاء؟

ولربما كل سلاح الطبيب المشرد في تلك الليلة الحالكة الباردة في وجه من يريد به شرا هو مجرد صوته الكئيب لا أكثر.

قد تكون أصعب الابتلاءات ما نشهده في المنام لنستفيق منه مذعورين وجلين خائفين.

ففي المنام نعيش ونرى شخصيات وأحداثا لا حدود لقسوتها وبطشها، وقد تتخطى حدود قدراتنا العقلية الإدراكية؛ فترى البعض منا يستنجد بالمفسرين لشرح معاني المنام.

في المنام نتلقى ومضات روحانية قوية تحذرنا من عيوب أنفسنا، والمحظوظ منا من يتعظ مما رأى ويتلقى التجليات منها بصدر رحب.

أيضا المحظوظ منا من يتعظ من ابتلاءات المنام ويستعيذ منها.

ذكريات الحرب

الذعر الشديد الذي استيقظ به الطبيب المشرد أنساه آلام بدنه وتقرحات جلده.

أنساه أنه يفترش رقعة جليد ناصعة البياض وأن سقفه سماء حالكة شديدة السواد لا نجوم فيها.

قد يكون الذعر مخدرا بدنيا قويا ينسينا كل آلام البدن.

ولكن، هل ينسينا كل الآلام؟

يذكره الذعر حينها بآلام روحه لتمر مصائبه كبرق خاطف أمام عينيه الجاحظتين.

ذعر صرخته المدوية التي بعثته من حلمه البائس إلى واقع متجمد حزين يذكره بيوم تعرض هو وابنته ملاك للقصف من طائرة حربية.

يريد الآن أن يفر بنفسه عن هذه الرقعة التي تلبست بثياب الفزع وتكحلت بالذكريات القاسية التي لا يرغب بالخوض فيها.

لهذا فقد وضع يديه بسرعة على الأرض كما يفعل العداؤون المحترفون وهَمَّ بالوقوف والهرب بعيدا.

لكنه لم يستطع أن يحرك قدميه، بل وأنه لا يشعر بهما.

لحظة!

أين قدماه؟

الطبيب المشرد مفزوع الآن من منامه الغريب.

كما أنه الآن يعجز عن التقاط أنفاسه؛ فهو يغرق عميقا في فزعه ويختنق غما وكربا من شبح الذكريات القبيح، والذي أمسك بجرس صدأ وجعل يقرع به أمام أذنيه.

لكنه ما زال مصرا على الهرب، لهذا فقد شخص بعينيه في ذلك الظلام الدامس يبحث عن قدميه.

يبدوا أنه قد صار مجنونا حقا!

يبحث عنهما متناسيا ما حل به من تلك الحرب.

المسكين...

حقا قد أنسته قسوة الابتلاء ووحشة الليل الهالك الكثير من همومه القديمة التي صارت ككرة صوف محترقة تأبى أن تنطفئ.

تلك الهموم التي استقوت على بدنه وتوجته مكرها بتاج العجز إلى الأبد.

أجل ...

أورثته الحرب كرما منها صفة العجز البدني، وبالمقابل فقد أهدى ملكة الحرب كلتا قدميه، فالحرب عند العارفين بها ملكة عجوز لا تقبل الهدايا السخيفة.

إنه الآن يستذكر مكرها ذلك اليوم الذي فقد فيه قدميه جراء تعرضهم لقصف من طائرات حربية على حين غرة.

يومها أمطرت عليهم الطائرات الحربية المزخرفة بالألوان الزرقاء والحمراء وابلا من القذائف الرمادية، ليصبح كل ما في المدينة ملعقة رمادية يستعملها الغول الإنساني في أكل أبناء جنسه متلذذا بمعاناتهم وهو يمضغهم قصفا ويعجنهم طحنا بالبنايات المتهاوية عليهم.

تلك القذائف التي مزقت الأبدان إلى أشلاء متناثرة وتناثرت معها أرواح.

لتودع حينها أرواح المحبين العارجين إلى السماء أرواح أحبائهم الذين بقوا على وجه الأرض.

يومها كان يمشي رفقة ابنته الصغيرة ذات الوجه الملائكي البشوش والجسد الهزيل، وهي تحيط بيدها الصغيرة حفنة من أصابع يده الدافئة، وتقفز أثناء مشيه معها محدقة إلى الماشين المسرعين من حولها وتنشد بنغمتها الطفولية:

أبي صديق القمر.

أمنكم من يعرف ما حل بالقمر؟

أبي يخاطب القمر.

أمنكم حنون كأبي يواسي القمر؟

أبي كانت له أمي أبهى من القمر.

يا قمرا من نوره أضاء القمر.

لتكون قفلة أنشودتها الطفولية دويا قويا مرعبا سببته قذيفة حاقدة على البسطاء السعداء.

قذيفة مراهقة الفعال، قبيحة فيما يسرد عنها من أقوال.

قد هزت الأرض حينها حولهم هزا.

وتطاير كل أولئك البشر حولها وأبدانهم تكتوي حرقا وتنزف دما.

تعجز عيناه الآن عن ذرف الدموع، فكل شيء في بدنه قد تجمد إلا الحزن.

الحزن القاتل.

أهو حقا قاتل؟

لم يذهب القصف بقدميه وحسب، بل أخذ بهجة الحياة وزينتها منه؛ أخذ منه ابنته ملاك.

أجل...

فقد كانت ابنته الصغيرة الوحيدة هي سنده الجميل في الحياة، وآخر ما تبقى له بعد وفاة زوجته في المخاض.

اااااه...

يبدو أن ألم الفراق وحزنه المظلم يثير زوبعة ذكريات وأشواق في روحه الممزقة التي فقدت كل الأحبة.

يا لنشوة الحزن!

فحينما يشتد الحزن يفتح لعين المشتاق باب الذكريات الجميلة، ليتسرب ذلك النور اللطيف ويهيئنا لاستقبال مواكب أطياف الأحبة وهم في أحسن حال.

يتبخترون في مشيتهم أمامنا بثيابهم الفاخرة، وقد تزينوا بزينة الكواكب وما يغشاها من إشعاعات نورانية آسرة للوجدان.

ركض أمامه طيف طفولي لابنته ملاك، فراح يتأملها بكل تفاصيلها الجميلة.

أسنانها المنقوصة غير المكتملة النمو.

وضحكتها الحلوة بتلك القهقهة المصاحبة لما تتسبب به من شغب.

وتطاير خصلات شعرها الأشقر الجميل كلما قفزت فرحا وهي تطلب منه حملها واحتضانها.

المسكين!

هو غير آبه لحالته المزرية ولصقيع البرد القاتل.

فقد اتخذ من طيف ذكرياته الجميلة التي تراوده شعلة نار تقيه أذى البرد المتفشي في بدنه.

فكلما سرح الإنسان بروحه مع طيف من يحب ينسى قسوة الآلام.

يذكر تماما كيف يبدو ملمس يدها الناعم وأصابعها الهزيلة، وكأنه يمسك بيدها الآن.

يا للأسف...

ليت طيف الذكريات الجميلة لوحده من يزورنا.

يزداد كآبة حينما يتذكر أنينها وهي تودع الحياة أمامه.

يتساءل بشوق وحسرة شديدتين:

هل كانت تودعه أيضا؟

غريب!

كيف أن لسعة برد قارس على ما تبقى من جسد متهالك نهشته الليالي الباردة الطاغية بتعنيفها لكل أولئك المشردين المتناثرين في هوامش هذا الكون الشاسع المتمدد والمشدد الخناق عليهم يوما بعد يوم.

أثار ذلك البرد زوبعة حزن داخل صدره الصغير الحجم متهشم الأضلاع.

أيضا...

متى تهشمت أضلاع صدره؟

لا يهم متى وماذا فقد من جسده إن كان قد فقد ابنته ملاك.

فحتما أنه قد وجد في الصوت الخافت من ضعف وانكسار ما يذكره بآخر ما سمعه من أنين ابنته ملاك، التي يشتاق إلى احتضان كل ما لامس وجدانها، عساه يستنشق من عبق ريحها الطفولي.

هل كان الصوت الخافت معراجه إلى روح ابنته ملاك؟

قد يكون الحزن أحيانا شجرة جميلة مثمرة.

ثمارها الوفاء لمن فقدنا من الأحبة.

يتساءل حينها بلهفة وشوق شديدين في نفسه:

كيف الوفاء لمن فارقوا الحياة وصاروا من بحر الذكريات؟

كيف الوصال إليهم؟

يخاطب نفسه:

بربك دلني أرجوك أيها البائس الحزين!

في خضم هذا اللوم والشوق يتذكر الطبيب وصية أمه -نادية-له حين كان صبيا لم يذق من هموم الحياة ومآسيها شيئا بعد.

يتذكر صوتها المحبوب إلى قلبه كأمواج دافئة تلامس شتات ذكرياته المرهقة من فرط الاشتياق، والتي تريد أن تفر بنفسها من نفسها عساها تمنح له شيئا يسيرا من الراحة والطمأنينة المسلوبة منه منذ أن تسلطت عليه سحائب الابتلاء المرافقة له حيثما حل وارتحل، آبية بذلك كل الإباء أن تنقشع عنه.

أجل...

يتذكرها حين أوصته قائلة:

يا بني، يا فلذة كبدي، الإحسان والعطف لمن هم على قيد الحياة إنما هو وفاء وإحسان لمن فارق الحياة.

أليست أعمالنا الصالحة وصدقاتنا لمن كسرتهم الحياة مثلنا هي طيور جميلة تعرج بأجنحتها إلى من فقدنا؟

أجل...

حتى أشجار الحزن المثمرة في قلوب الأحياء هي أشجار مثمرة؛ فهي تغذي طيورا، وأي طيور هذه التي يغذيها شجر الحزن!؟

هي طيور تحمل برنا وأعمالنا الصالحة إلى أرواح فارقتنا.

تذرف عيناه الآن دموعا ليست حزنا على نفسه، وإنما حزنا على كل من أمطرت عليهم السماء هموما ومصائبا.

يرق قلب الإنسان ويستشعر آلام الآخرين لما يجلس تحت شجرة الحزن.

يتذكر أنين ابنته ملاك وهما في سيارة الإسعاف حينها كان عاجزا عن الكلام أو حتى الأنين.

كان يخاطب ابنته طوال تلك المدة بلغة بكماء خفيفة دون صوت أو إشارة.

خاطبها بلغة العيون الجميلة المتعبة.

عيون اتصلت نظراتها لتعلن أنها لحظة الوداع.

ينظر في عينيها الصغيرتين المملوءتين ذعرا ويتمزق قلبه شفقة على حال ابنته الصغيرة المرعوبة.

فكل ما كانت ترغب به الصغيرة المذعورة هو حضن أبيها عساه يلم شتات أشلائها.

ملاك الصغيرة ترعبها صفارة سيارة الإسعاف، ويرعبها ضعف أبيها الذي لمحته في عينيه المتورمتين.

فليست عيون أبيها التي عهدتها في عمرها الصغير.

عجبا!

أبوها الطبيب الماهر الحنون الذي وهب ما مضى من حياته لعلاج المرضى هو الآن يحدق بعجز وضعف إلى ملاكه الصغير.

كان يدرك تماما أن سيارة الإسعاف حينها قد تكون معراجهم إلى السماء.

يتجلى جوهر الروح بأنه نفخة ربانية أكسبت الإنسان صفة الرحمة حينما يخر الإنسان بضعفه وعاطفته أمام من يحب.

يتذكر الطبيب بحزن كيف تنهدت ابنته الجريحة وهي تحدق إلى عينيه المشفقتين، ليتبين له أن روحها البريئة ستفارق ما تبقى من أشلاء بدنها المفدى.

وأي فداء سيكون لها؟

بل وأي فداء لكل تلك الأرواح البريئة التي ترقى إلى السماء مفارقة ذويها على الأرض كلما حلقت فوقهم طائرة العدو قاصفة إياهم بالحديد والنار؟

يتحسر أنه كان عاجزا عن ضمها إلى صدره الملتهب غيظا، لضعفه أمام ما تبقى من جسد ابنته الممزق.

المسكين...

كيف سيبسط يديه لها وهو غير قادر على الحركة، فقد نزف من دمه الكثير بمثل ما نزفت روحه حزنا وبؤسا حينها ...

عند وصول سيارة الإسعاف إلى المستشفى كان المكان قد امتلأ بصراخ الجرحى والمسعفين أيضا.

كما أن بقع الدم قد طلت تلك الأرضية وكأنك على عتبة مذبح لا بمدخل مشفى.

يتذكر كيف للزمان أن يكون سلطانا قاسيا حينما تتسارع اللحظات الرهيبة لتعنف المستضعفين.

فها هم يركضون بابنته في ممر غير الذي سيسلكه.

مسكين هذا الطبيب المشرد...

يبدوا أنه قد عاش غافلا متناسيا حقيقة أن كل محب مفارق.

ليدرك الطبيب المشرد بعدها أن المسكين منا من يعيش غافلا قاصرا عن إبصار اختلاف سبل السالكين في الحياة.

ولا يستفيق المسكين منا من غفلته ليلحظ اختلاف ما يبلغه السالكون وتفاوت مقاماتهم إلا بعد أن تفارقنا وتودعنا أرواحهم، وقد أتموا معراجهم إلى السماء.

عجيب أيضا ما حدث للطبيب المشرد!

يوم دخلوا به على جناح السرعة إلى غرفة العمليات.

فأثناء خضوعه لعملية جراحية طارئة لوقف النزيف من قدميه المبتورتين، وبالرغم من جرعة المخدر القوي التي تسري في بدنه لتغيبه عن وعيه، إلا أنه استفاق بشكل مفاجئ ليفتح عينيه ويقوم من سرير العمليات كما قد يقوم ميت من قبره.

ليضع كلتا يديه على الطبيب الجراح قائلا له بصوت جريح منهك:

ملاك صغيرتي أخبرتني أنها تشعر بالذعر أرجوكم أسعفوها.

لينال منه المخدر القوي من جديد ويغيب عن وعيه، مسلما بدنه لمن كان هنالك في غرفة العمليات، وقد ساد الذهول والحيرة ذلك المشهد الرهيب.

ليحفر هذا المشهد الغريب بشكل عميق في ذاكرة كل من كان في تلك الغرفة، ويصير حكاية تتناقلها ألسنة الأطباء.

كان الجميع يتساءل بذهول:

كيف أمكن لبدن الطبيب المشرد حينها وقد فقد من قوته البدنية الكثير ونزف من دمه بشكل غزير أن يتغلب على المخدر القوي؟

عجز الأطباء رغم إلمامهم بالطب ودرايتهم بكل ما يتعلق بالبدن البشري أن يجدوا لهذه الحادثة تفسيرا بما يوافق الطب.

في الحقيقة إن ما حدث هنالك هو انتفاضة روح ثائرة قوية ولا دخل لبدن ضعيف متهالك بما حدث.

من شهدوا مثل هذه الأحداث يؤمنون بأن الروح لها تجليات قوية تفيض بها لتنجد البدن الضعيف المتهالك.

تكون حينها تجليات الروح أقوى وأكبر من أن يدرك عقلنا البشري كيفية حدوثها.

بل وتتخطى حدود الزمان والمكان لتصل بما يعجز البدن عن بلوغه، وقد تتصل بما لا تدركه حواس جوارحنا العاجزة.

لندرك حينها أن الروح ليست دوما حبيسة هذا الجسد.

وأي جسد أصله تراب يقدر على حبسها؟

فهي روح نورانية تجول وتسبح أحيانا في عوالم لا يمكن لهذا الجسد الضعيف بأي حال أن يدركها.

ومن كرم الروح أحيانا أن تبوح لعقلنا المرتبط بالجسد إن هي شاءت بأسرار ما قد بلغت واطلعت.

وتنبئه بما غاب عن جسده كمزية لها؛ لأن باستطاعتها اختراق حُجب المكان والزمان، مثال ذلك ما يكون من رؤيا صالحة لعباد صالحين.

ولربما قد يشع نور الروح حين صفاء السريرة، ليمنح الجسد البشري طيب المظهر ويكسونا بسمات حسنة تسر الناظرين، تماما بمثل ما نلمحه من سمات في عباد صالحين.

النار الموقدة

مسكين هذا الطبيب المشرد...

مرت أقسى ذكرياته المروعة أمامه حين استفاق من حلمه مذعورا.

ولربما كانت في هذه الليلة الباردة ذكريات مآسيه هي كل ما يؤنسه.

وأي أُنس هذا؟

المسكين...

غريب حاله وواقعه...

يا لشدة ما أصابه من أسى جعله يتجرع الحزن تجرعا.

فبعد أن فقد ابنته ملاك أحب العزلة.

وأي عزلة هذه؟

فقد تخلى عن وظيفته المرموقة، وغادر قريته الجميلة وأحبابه المقربين.

ببساطة تخلى عن كل ما يربطه بجنسه البشري منذ أن فقد ملاك.

بعد مرور لحظات من استفاقته من حلمه واسترجاعه لأنفاسه خفت وطأة الذعر عنه واسترجع عزمه القوي في البحث عن صاحب الصوت الخافت.

وراح يحدق بعينيه الجاحظتين الحادتين بصرا فيما يحيط به عساه يلمح شيئا ما.

لكن عتمة الليل حالت دون ذلك، ليدرك حينها أن صاحب الصوت الخافت إن كان على قيد الحياة فهو حتما لا يبصر شيئا أيضا.

لملم الطبيب المشرد ما تبقى من جهد في بدنه الهزيل المتآكل من قوة خائرة عساها تعينه ولو بشيء يسير في اختراق حُجب الظلام.

آملا بذلك إيجاد صاحب الصوت الخافت وإغاثته.

كان زحفه على الجليد مستعملا يديه الداميتين يخلف أثرا خفيفا من خضاب الدم على الجليد.

فَعل ذلك لمسافة طويلة جدا استغرقت منه ما يفوق الساعة، غير آبه لتقرحات جلده وللسعات البرد القارس على جسده.

لقد أحيا ذلك الصوت في هذه الليلة الحالكة القاسية ما أحيا من جمال روحي وطيبة ذات دفينتين في أعماق أراضي قلبه الذي لو صهر الكون وصب فيه لاتسع له.

كان هذا لصدق نيته الطيبة في مساعدة صاحب الصوت الخافت.

فجأة إذ به يرى نارا لا دخان لها.

يتساءل بريبة في نفسه:

أأوقد صاحب الصوت الخافت نارا؟

وإن لم يكن الذي أوقد النار هو نفسه صاحب الصوت المستغيث ظاهر الضعف والحاجة، فمن ذا الذي يا ترى سيترك دفء بيته ليتخذ من الخلاء في هذه الليلة الباردة مأوى له؟

لامس هذا السؤال قلبه وكأنه هو المقصود بالسؤال لا صاحب النار.

إلا أنه يرى أن حظه من نعيم الدنيا قد انقضى يوم ودع ملاك.

يواصل زحفه صوب تلك النار الموقدة وقد تملك الخوف قلبه من أن يكون الذي أوقد النار لا يرغب بضيوف متطفلين في مثل هذا الوقت المتأخر.

من الجلي أنه غير راض تماما عما يقوم به الآن، وأن يتقدم بنفس مترددة وأنفاس متسارعة تسابق نبض قلبه المضطرب القلق، فليس من عادة هذا الطبيب المشرد أن يكون متطفلا أبدا.

ولربما هي أول مرة تراوده فيها نفسه المترددة كي يقوم بهذا.

فمن يلبث زمنا طويلا في الخلاء الموحش سيتعلم أن التطفل والانقياد وراء الفضول يقود دوما بالمخلوقات نحو الفخاخ المهلكة والعواقب القاتمة المصير.

كل هذه الجرأة التي نزلت عليه بشكل خاطف زادته دافعية ليتبين إن كان صاحب النار هو نفسه صاحب الصوت الخافت.

رغم كثرة الشكوك الخبيثة والظنون الفاسدة التي تشتد به كلما كان يقترب من النار الموقدة، والتي كاد صداها في نفسه أن يضعف رغبته في أن يكون هو المغيث لصاحب الصوت الخافت.

إلا أن صدق عزيمته وقوة إرادته حالا بينه وبين سموم ظنه.

ها قد وصل الآن إلى النار ليتبين له أن لا آدمي حولها، لكن هذا لا يخيفه حتى وإن كان الذي أوقد النار ليس من جنس البشر.

فقد عاش لوحده معتزلا في خلاء البرية ما أكسبه يقينا جازما بأن من يفسد في الأرض ويؤذي البشر هم نفسهم البشر.

أوليس الذي بتر قدميه وأغاب عن حياته الدنيا بهجة ملاك هو نفسه من البشر؟

غريب كيف أن طعنات الخذلان تجعلنا ننزف أسى لنفقد ببطيء أنبل ما فينا!

أوليس هو نفسه الطبيب الذي وهب حياته سابقا لخدمة البشر ليصبح مشردا الآن؟

بل وكم أنقذ من أرواح أوشكت على الهلاك ليقابل الخذلان؟

وأي خذلان؟

خذلان جعله يفر من كل مظهر لحضارة البشر، تماما كما يفر الواحد منا لما يلمح وجودا لأولئك القوم من غير البشر.

المسكين...

أَنسته تلك النار الموقدة، ولربما أوقدت بين أضلاع صدره نارا دافئة غير حارقة.

وأي دفء هذا الذي اتقد في صدره؟

هو نفسه الدفء الذي كان ينعم به حينما كانت صغيرته ملاك تنام في حضنه، محدقا بعطف وحب كبيرين إليها، وقد كان بين الفينة والأخرى يضع أنامله على رقبتها متحسسا نبضات قلبها.

بالنسبة إليه حينها لم يكن قلبها ينبض ليضخ دما وحسب.

كان قلبها ينبض ليضخ كما هائلا من براءة الطفولة، لتلامس روحه المتعبة من هول ما كان يلقاه في المستشفى.

صراخ الجرحى والمرضى من شدة الألم كان يخدش روحه ويدميها.

كما أن ضجيج روتينه اليومي وكَيد البشر لبعضهم وما يصحبه من انفعالات كان يعكر صفو روحه ونقائها، ليعود إلى بيته حاملا معه شيئا من دنس القلوب.

كل هذا الدنس تغسله براءة طفولة ملاك بعفويتها الحلوة وانفعالاتها من كل تلك القصص التي كان يرويها لها بما سمعه عن القمر.

تذكر ضحكاتها وسعادتها وتفاعلها الذكي رغم صغر سنها في تلك الليلة حينما أخبرها عن قصة القمر، وعما يدفعه كل شهر كي يقترب من الأرض مسببا ظاهرة المد.

قالت له وقتها:

ولِمَ يقترب منا القمر؟

فأخبرها إن اقترابه الملهوف منا هو بغرض زيارة محبوبته المدفونة في رمال الصحراء الكبرى، حيث أن جسدها المكسو بطعنات الخناجر والسيوف لا زالت تنزف جروحه وتسقي الأشجار المحيطة بقبرها من عذب دمها.

ثم قالت:

ولكن لِم عذبها قومها وغدروا بها إن كان ذنبها الوحيد أنها أُغرمت بالقمر؟

قال لها:

لأنهم لم يتقبلوا فكرة أن ما كان بينها وبين القمر هو غرام طاهر لم يمسسه الدنس.

فبالنسبة إليهم كانت تلك هرطقة وضربا من الدجل، وحينما رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم كل ما يهديه القمر إلى محبوبته، اجتمعوا خلسة واتفقوا على أن يغدروا ببنت قبيلتهم محبوبة القمر، تخوفا مما سيحصل إن هما استمرا بتبادل مشاعر الحب.

ثم سألته وقد أزاحت بشفتيها إلى جنبها الأيمن كعلامة للتعجب والغيرة:

وهل يا ترى يفوق حب القمر لها حبك لأمي المتوفي؟

فاحتضنها وقال:

يا بنيتي في الحب تذوب كل المعالم.

فلا نحن نقدر على المقارنة ولا هو يرضى لنا بمقارنته في مختلف حالاته حتى ولو كان ذلك بين أطوار ذاته.

ابتسمت ابنته واحتضنته مطولا، فقد شعرت في سرده للجواب بحنين وشوق قد أثقلا نفسه إلى زوجته سارة، وأن ما قص لها عن القمر لا يختلف عما حدث له.

ترتسم الآن على وجهه ابتسامة غريبة!

لربما كانت جراء ما حملته الذكريات الدافئة إلى صدره.

يتساءل في نفسه مجددا:

أكان الذي أوقد النار في هذه الليلة محتاجا لعاجز مثلي؟

وبينما هو منهمك مع نفسه في طرح التساؤلات العديدة المتلاطمة مع بعضها كأمواج عاتية في بحر شبه متجمد.

فجأة يقف أمامه رجل ضخم الجثة، أصلع الراس، كثيف اللحية، حاملا بندقية الصيد على ظهره، وأرنبا مذبوحا قد ربطه بحزام خصره.

يبسط الصياد يده إلى الطبيب المشرد كي يصافحه.

امتنع الطبيب المشرد عن المصافحة بيده.

فهو حتما لم يصافح أحدا منذ زمن بعيد.

كما أن الذعر قد تملكه؛ فهو الآن يحدق بعينين جاحظتين إلى هذا الرجل الضخم الذي يقف أمامه.

غريب كيف أنه لم يحس بقدومه حينما كان يقترب منه، بالرغم من أن سمع الطبيب المرهف ما كان أبدا ليفَوِّت صوت انكسار العيدان الصغيرة التي تحيط به.

وكأَنَّ هذا الرجل من أولئك القوم الذين ليسوا بحاجة في تنقلهم كي يدوسوا على الأرض.

ازداد رعبه لما قيدته هذه الشكوك بسلاسلها الباردة، وراحت تعتصره لتسحق ما في صدره من شجاعة ورجولة معا.

راح مختطفا لحظات من هول صدمته يتوسم فيها مظهر هذا الرجل الضخم عساه يتصرف بسرعة قبل أن يلحق به ذلك الأذى البشري.

لكن ملامح وجهه ويده المبسوطة إليه منذ وهلة لا توحي أبدا بأنه يبطن شرا.

يلفظ هذا الصياد باسم الطبيب المشرد قائلا:

دكتور يوسف أنا علي، ألم تعرفني؟

يرتبك الطبيب المشرد حينها فهو لم يسمع أحدا يناديه بالدكتور يوسف، بل إنه لم يكلم آدميا منذ زمن.

كانت فظاظته هذه عند لقائه مع هذا الصياد نتيجة حتمية لعزلته.

فحينما ينعزل الإنسان بنفسه في منأى عن بني جلدته فإنه يعزز صفاته العدوانية.

ولربما حينها قد تغلبه طبيعته الميالة إلى الغريزة الحيوانية؛ فيرى بأن كل من يقترب منه إنما هو مفترس له.

يبتعد الدكتور يوسف مستعملا يديه في زحفه إلى الخلف، حينها يرفع الصياد علي كلتا يديه كإشارة منه بأنه أتى مسالما، ثم يقول:

دكتور يوسف هون عليك.

أنا صديقك الصياد علي، ألا تذكرني؟

حينها يتمتم الطبيب المشرد بكلمات غير مفهومة بشكل عدواني مقيت.

ليتيقن الصياد علي حينها بأن الطبيب المشرد قد غيرته المعيشة الضنكا إلى شخص آخر غير الذي كان يعرفه منذ زمن.

عجيب!

كيف أن الأسى والحزن قد يهدمان العبد الجميل كما يهدم صدا الحديد البنيان حتى وإن كان شامخا.

يحدق الطبيب المشرد ببندقية الصيد لتعود به الذكريات الجميلة إلى زمن جميل.

زمن كان فيه شابا فتيا يهوى الصيد بالبندقية.

ولم يكن الصيد حينها بالنسبة إليه مجرد هواية، بل كان عالما موازيا يلج إليه كلما ارتدى بذلة الصيد.

في عالم الصيد اضمحلت كل صفات ضعفه؛ فدوي بندقية الصيد نسف الخوف في قلبه ليجعل منه رجلا لا يهتز للأصوات القوية القارعة.

إمساكه للبندقية بكلتا يديه واضعا إصبعه على الزناد بثبات طوال فترة الصيد علمه فن التحكم بمهارة، رغم تقلبات الأحداث وتداول الأيام.

تتبع الفريسة بعينيه رغم بعدها عنه زاده حدة في البصر والبصيرة.

فلم يكن يأبه لما يحول بينه وبين فريسته.

يتذكر كيف أنه كان يزيل عن نفسه ضغوطات دراسة الطب البشري، فقد كان يحفظ أسماء الميكروبات بكل أصنافها، ناهيك عن تفاصيل الحالات المرضية التي كانت تتجسد فيه كأعراض مصاحبة لدراسة الطب.

إضافة إلى كل مشاكل الكلية وتفاهاتها المزعجة ...

كل هذا كان يزول عنه بمجرد ولوجه إلى ذلك العالم الموازي الجميل عالم الصيد والصيادين.

يقطع الصياد علي بصوته الخشين طيف الذكريات الجميلة قائلا للطبيب المشرد:

دكتور يوسف، أعلم أنك صرت لا تطيق جوار البشر منذ حادثة المستشفى الأليمة.

أعلم كم يكون قاسيا على الرجل أن يخبروه بأنهم قد دفنوا ابنته تحت التراب دون أن يمنحوه فرصة لوداعها.

أعلم بأنك لم تصدقهم حينما أخبروك بأن قبرها لم يعلم لأنهم دفنوها مع بقية الأطفال الشهداء يوم القصف العنيف.

سمعت بأنهم وصفوك بالمجنون الأبله، مشككين في رجاحة عقلك، لما أخبرتهم بأن ابنتك ملاك قد تم إسعافها وإنقاذها، وبأن حدس الأبوة صادق لا يخطئ.

يقاطع لطبيب المشرد بصوت كله غضب كلام الصياد قائلا:

يا لقبح البشر وجحودهم للنعم والمنعمين!

عجبا...

ألم تكونوا تهرعون إلي بمرضاكم متوسلين لي أن أزيل عنهم الأذى؟

ولكني حينما أتيتكم بابنتي ملاك لتسعفوها قابلتموني بالخذلان.

أخبرتموني بأنكم عجزتم عن إسعافها، وبأنكم قد دفنتموها في مقبرة جماعية للأطفال دون موافقتي أنا أبوها المقهور ظلما.

يتوقف الطبيب المشرد عن الكلام ليحدق بعينين مملوءتين غضبا وحقدا إلى الصياد.

حينها تغرورق عينا الصياد علي بالدموع فقد نزلت كلمات الطبيب المشرد بوطء ثقيل على قلبه؛ خصوصا وأنه يكن احتراما ومودة كبيرين إليه.

كيف لا يكون هذا؟

وهو يعلم كم الأرواح التي أنقذها الطبيب المشرد أيام كان طبيبا مختصا في قسم الاستعجالات.

يخر الصياد علي على ركبتيه ليعتذر من الطبيب المشرد قائلا له:

عذرا، يشهد الله يا دكتور يوسف أني لم أقصد أن أذكرك بما مضى، ولكني أحمل إليك خبرا مفرحا سَيُعيد إليك أملا في بهجة الحياة.

دكتور يوسف، ربما أنت لا تذكرني وأنا لا ألومك على هذا.

قاطعه الطبيب المشرد قائلا:

بل تذكرتك الآن.

أنت أيضا قد أخبرتهم ذات مرة أنك صرت قادرا على الاستماع إلى صوت القمر منذ أن توفي إخوتك الثلاثة وهم تائهون في الصحراء.

وأنك استمعت إلى القمر وهو يصيح في تلك الليلة التي سبقت وفاتهم حين قال لك:

اسقهم الماء يا علي.

وأنك لم تصدق أذنيك حينها إلا بعد عديد المرات التي استمعت فيها إلى صوت القمر.

لكني لم أرغب بالإفصاح عن قدرة استماعي إليه أيضا، خوفا من اتهامي بالجنون بمثل ما اتهموك أنت.

حينها أرادوا أن يقنعوك بأنك تعاني من صدمة فقدان إخوانك لا أكثر.

وأن ما تسمعه لا يعدوا كونه هلوسات.

صاح الصياد في وجه الطبيب المشرد:

يوسف، استمع إلى بشارتي.

منذ أسبوع خرجنا نحن أصدقاؤك الصيادون نبحث عنك في محيط القرية لنزف إليك خبرا مفرحا.

ابنتك ملاك....

يقاطع الطبيب المشرد كلام الصياد -صارخا-:

ما بها ابنتي ملاك أخبرني أهي على قيد الحياة؟

تعلو وجه الصياد ابتسامة.

يبدوا أنه يريد زف البشرى إلى الطبيب المشرد بتأن، ولربما كان هكذا طبعه في زف الأخبار المفرحة.

يقول الصياد:

اتضح الأسبوع الماضي أن جمعية لرعاية أيتام الحرب لم تتمكن من تحديد هوية الأبوين لفتاة في عمر الأربع سنوات.

صدقني يا دكتور يوسف هي تشبه تماما ابنتك ملاك بحسب ما لمحناه في صوركما القديمة.

يعجز الطبيب المشرد عن الكلام من هول الصدمة.

ففي عينيه لم يعد الليل حالكا، وإنما صار نهارا ساطع الأنوار، وقد انشرح صدره لما سمع من البشرى، وصار قلبه بساطا ترقص فوقه الولدان المخلدون.

ينظر إلى الصياد وقد صار في عينيه ملكا جميلا حمل إليه بشرى من السماء.

بل وأي بشرى؟

فقد نفخ حينها في جسد الطبيب روحا كنسمة طيبة خفيفة.

عجبا...

كيف أن استجابة قلب مرهق لصوت خافت في ليلة حالكة يُمْكنه أن يغير حال الطبيب المشرد من رجل كئيب حزين يئس من الدنيا وما فيها إلى رجل مسرور صار كله أمل في لقاء ابنته التي قد مزق الشوق قلبه لأجلها.

غريب كيف أن نيته الطيبة الصادقة في نجدة صاحب الصوت الخافت قد جلبت إليه بشرى وجود ابنته ملاك على قيد الحياة.

يرفع الطبيب المشرد رأسه إلى السماء بعينين قد فاضتا دمعا قائلا بصوته الباكي:

إلهي ... يا رحمان

كنت أعلم بأن ضعفي إليك ظاهر برجلين مبتورتين، وضعفي إليك باطن في روحي التي قد اشتد بها الأسى سيجلبان لي رحمتك.

أوليس أقرب الناس إلى أبواب الرحمان هم أولئك الذين يتصفون بالرحمة مع خلقه ورقة القلوب؟

يمسك الطبيب المشرد بالصياد من معطفه قائلا له:

كيف هو حالها أهي بخير؟

هل تأذت كثيرا؟

أين هي الأن؟

الصياد:

اطمئن يا يوسف فقد زرتها وهي بخير، كل ما تحتاج إليه ابنتك ملاك هو أن تضمها إلى صدرك وتعودا معا إلى البيت.

الطبيب المشرد:

أتدرك يا علي كم هو صعب الفراق؟

لقد مرت عليَّ أيام عشتها جسدا بلا روح.

لقد كنت فيها كصديقي القمر.

هلاَّ أوصلتني إلى ابنتي على جناح السرعة؟

فلم يعد باستطاعتي أن أنتظر أكثر مما قد انتظرت.

أوصلني إليها يا علي.

رجاءً.

ولن أنسى لك فضلك هذا ما حيت.

أسرع الصياد في تلبية طلبه، واتصل بمن يوصلهما إلى المكان التي تتواجد فيه شبيهة ملاك.

وبينما هما في انتظاره، سأله:

استحلفك بالله هلا وضحت لي سبب حزن القمر ومن هو المقصود برثائه وغزله، فأنا لم أفهم خطاب القمر.

أم تراه يحدث كوكبا آخر وأني مستمع متطفل لا أكثر؟

أرجوك فك كربتي قبل أن نذهب إلى المدينة لنلقى شبيهة ابنتك ونتحقق منها.

طمئن عقلي المضطرب.

فحتى أنا أكاد أتهم نفسي بالجنون، حدثني عن القمر.

أخذ الطبيب المشرد نفسا عميقا طويلا يوحي بعدم رضاه عن البوح بأسرار القمر، فحسبه البوح بأسرار غيره يشبه شنيعة من ينكث عهدا مقدسا يوجب الندامة المطولة.

فهو لا يقص أسرار القمر للغير بسهولة.

وهكذا كان دأب أصحاب كرامة الاستماع إلى صوت القمر.

لكنه لمس تعبا فكريا في كلام الصياد من كثرة ما أبهم فهمه عن قصة القمر.

حينها خاطب الطبيب المشرد الصياد قائلا:

كل أصحاب الكرامة قد أجمعوا أن القمر كان ناسكا متعبدا من أقطاب التصوف الكوني القديم، فلا يوجد كوكب يجاريه في زهده.

وقد خبأ وهجه منذ زمن بعيد لأتباعه طريق الخفاء والفناء.

حتى أتى ذلك الزمن الذي أغرم فيه القمر بإحدى الجواري اللواتي يعشن حياة الترحال بين الأراضي الشاسعة.

كانت تلك المرأة من أصحاب الكرامات أمثالنا، اسمها رملة، هي أيضا تربت يتيمة وذاقت من المحن الشيء الكثير رغم صغر سنها.

كل هذا والقمر ينظر إليها كل ليلة وهي تلقي دموعها إلى تلك البقعة من الأرض العطشانة، والتي لم يكن يرويها إلا دموعها.

ولربما هذا ما جذب القمر إليها.

فأنت تعلم افتتان القمر بأصحاب الابتلاء وكأنه يرى نفسه فيهم.

قال الصياد:

كنت متيقنا أن حبيبته هي مخلوق بشري.

لكن كيف تعارفا وزاد حبهما؟

قال الطبيب المشرد:

رملة كانت حلم كل رجل في قبيلتها، إلا أنها قد افتتنت بالقمر منذ أن استمعت إلى تغزل القمر.

وأدركت إعجابه بها.

وقد وصل بها الأمر أن اعتزلت قومها وفرت وحيدة بعيدة عنهم.

كي تعلن للقمر أن زوجته في هذا الكون هي جارية على وجه الأرض.

قال الصياد:

لكنني لم أسمع القمر أبدا يذكر هذا.

وبينما هما يتكلمان إذ بهما يسمعان صوتا خافتا بعيدا كاستغاثة مستغيث أوشك على الهلاك.

لينطق كلاهما في آن واحد:

إنه الصوت الخافت، أين صاحبه؟

❁ ❁ ❁

تم بحول الله وقوته

للنشر والتوزيع والطباعة واقتناء الكتب يرجى التواصل معنا:

مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف
للنشر والتوزيع

الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

هاتف / فاكس 033 80 47 79 / 0770 68 04 19

واتساب/0675 49 73 86